دراسات في الإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

النظام الاقتصادي في الإسلام

للأستاذ محمد عبد المطلب أحمد

يشرف على إصدارها :
محمد توفيق عويضة

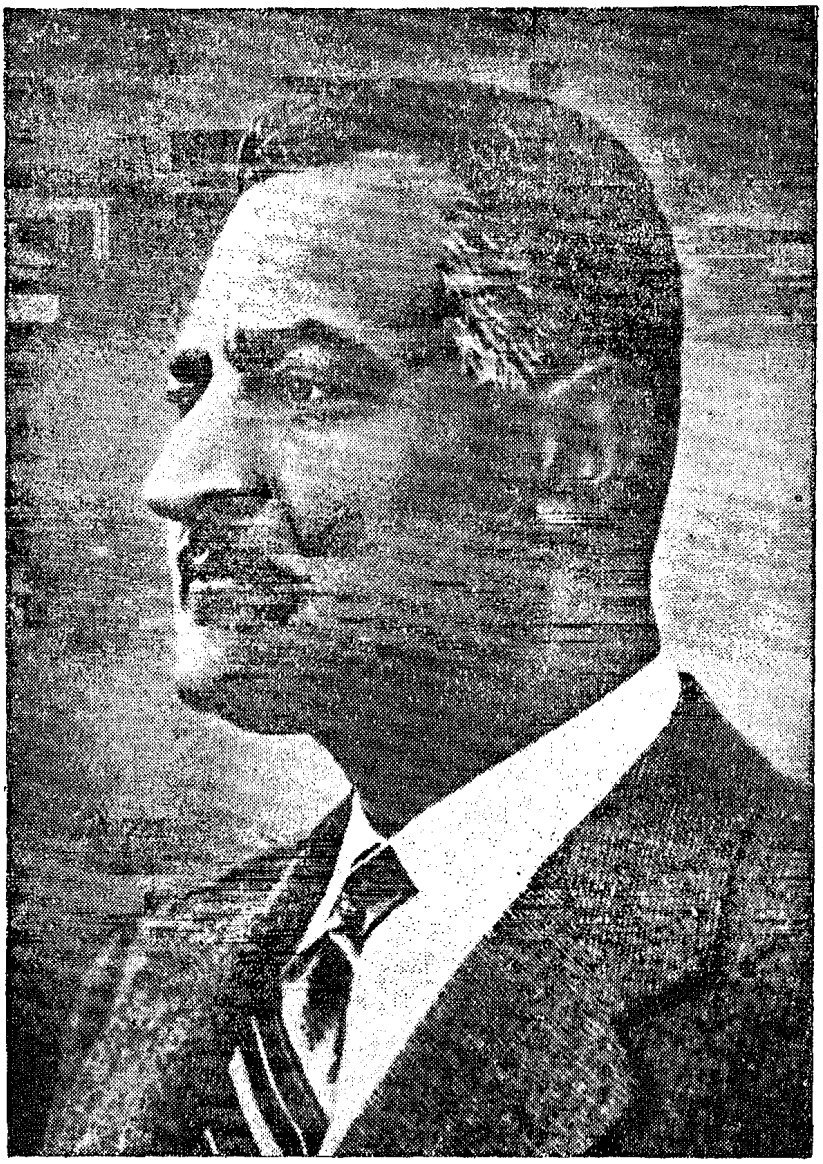

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »

« سورة النحل »

مقدمة

لقد بدأت الكتابة فى هذا البحث وأنا أتوقع أن أعيش لحظات ممتعة بين سطور الكتب التى تتحدث عن اقتصاديات الاسلام بوجه خاص والاسلام بوجه عام • والحقيقة أن هذا التوقع لم يخب أبدا فقد دلت تلك الساعات التى قضيتها أبحث النظام الاقتصادى فى الاسلام • دلت على أن الاسلام قبل كل شىء • دين ودنيا • روح ومادة • عالج النفوس الانسانية وحطم فى طياتها عوامل الشر وكوامن الفساد • ثم أوجد لها نظاما سماويا يستمد عناصر تنظيمه من بيئة الانسان وظروف وجوده ومعيشته ولقد بدأت بحثى هذا ـ بعد أن قسمته ثلاثة أجزاء ـ بالحديث فى مقدمة تتناول النظام الاقتصادى وتحديد فترة البحث • ثم أبرزت أسس المدارس الاقتصادية محاولا تفسير مفهوم النظام الاقتصادى فتحدثت عن المدرسة الكلاسيكية ثم المدرسة التاريخية •

وفى حديثى حاولت ابراز الأسس التى تعتمد عليها فى تحديد فترة البحث • ثم خلصت الى تحديد النقاط التى سوف تكون مجال الحديث ومدار النقاش •

فتكلمت فى الجزء الأول • عن الفلسفة العامة للنظام الاقتصادى فى الاسلام • الحرية • أم التدخل • مبتدئا كلامى عن

المذاهب الاقتصادية القائمة • أو الفلسفات الاقتصادية الموجودة في نظام الاقتصاد وأولى هذه الفلسفات هى فلسفة « الحرية » وثانيها فلسفة « التدخل » وبعد أن عرضت لهاتين المدرستين أثرت السؤال الهام ـ والذى من أجله عرضت الفلسفتين السابقتين ـ وهو هل الاسلام نظام الى الحرية • أم هو يسير نحو التدخل •

تحدثت عن الاسلام والنظام الحر أوالفلسفة الحرةمتتبعا أثناء هذا الحديث آيات كتاب الله وأحاديث الرسول وسيرة الصحابة رضى الله عنهم • عارضا لآرائهم فيما عرض لهم من أمور كى ألتقط أو آخذ من هذه المصادر الأسس التى على أساسها يمكن أن نقول بأن الاسلام يبتعد عن هذا النظام الحر أو يقترب منه • ولقد خلصت من هذه النقطة الى المقارنة بين الاسلام والرأسمالية وأوضحت بعد الاسلام الكبير عنهذا النظام الرأسمالى الفاسد •

تحدثت عن الاسلام ونظام التدخل . وفيه أوضحت مدى كثرة المذاهب الأشتراكية وتعددها • وبدأت كلامى بالحديث عن الاسلام والشيوعية • وأوضحت مدى تناقض المفاهيم الشيوعية مع العقائد والنظم الاسلامية وعرجت من هذا النظام الشيوعى الديكتاتورى الى نظام ديكتاتورى آخر هو النظام الفاشى موضحا أيضا مدى العلاقة بينه وبين النظام الاسلامى • ثم تقدمت من هذه النقطة الى الحديث عن الاسلام والاشتراكية وقعدت بها كما أوضحت فى مكانه ـ الاشتراكية التطورية السلمية فى مقابل الاشتراكية المتطرفة الثورية وهى التى أسميتها كما يطلقون عليها « الشيوعية الماركسية » •

ولقد حاولت ايضاح مدى توافق الاسس الاشتراكية لبعض تعاليم الاسلام • ثم خلصت الى أن الاسلام هو الدين الجدير بلقب

الاشتراكية بما خطه من أسس فى التكافل والتضامن ، وبما رسمه من أسس فى العدالة والمساواة .

ختمت هذا الجزء من البحث بحديث عن النظم الاقتصادية عامة . وأوضحت مكانة الاسلام كنظام اقتصادى بين هذه النظم .

كان الجزء الثانى هو جزء الحديث عن التطبيق فى الاسلام ، وقسمت فترة البحث الى ثلاثة أقسام . الاولى هى تأسيس الدولة . وانتهت بموت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيها عرضت لحديث موجز عن النظام الاقتصادى قبل الاسلام . ثم تبعته بالحديث عن مجتمع المدينة ومصادر التشريع آنذاك . ثم كان العصر الثانى وهو عصر كبار الصحابة ويمتد الى تولى على بن أبى طالب الخلافة . ثم العصر الثالث وهو عصر صغار الصحابة ويبتدىء من ولاية معاوية سنة ٤١ هـ الى أوائل القرن الثانى الهجرى . وكانت تلك هى عصور التشريع الثلاثة ثم واصلت حديثى متكلما عن نظام المعاملات فى الاسلام . وعرضت لكثير من هذه المعاملات فى سرد موجز كالبيع والربا والرهن الخ ..

وفى نهاية هذا الجزء تحدثت عن الميراث فى الاسلام ومدى فائدة هذا النظام من الناحية الاقتصادية وبينت الحكمة فى نظام الارث .

خرجت من هذا الجزء الى الجزء الثالث والاخير فى البحث وهو الذى يشمل الحديث عن مصادر الدخل فى عهد الرسول من زكاة وخمس وغنائم وفىء وجزية واقطاع . ثم تحدثت عن موارد الدولة فى العصر الثانى وشملت الموارد أيضا الزكاة والغنيمة والجزية والخراج والاقطاع والعشور وغيرها من الضرائب ثم تحدثت عن ثروة الدولة الاسلامية فى عهد الرسول وفى عهد الخلفاء

من بعده تم تابعت الحديث عن بيت المال وأوضحت أن أول من أنشأه هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه ٠

بعد حديثى عن الموارد ٠ كان لزاما أن أتجه الى الحديث عن مصارف الدولة من ايراداتها ٠ وذكرت أن أبواب هذه المصارف ثلاثة كل منها يستمد حاجته من نوع معين من واردات الدولة ٠

تبعت الكلام عن المصارف بالكلام عن الضريبة والعدالة الضريبية فى الاسلام ٠ وأوضحت مدى ما اشتملت عليه هذه الضرائب من روح العدل والرحمة والمساواة ٠

وختمت هذا الجزء بالحديث عن العوامل السياسية ومدى تأثيرها فى النظام الاقتصادى فى الاسلام وقد أوضحت خلال هذه النقطة أسس الحكم فى الاسلام ومدى تأثيرها فى النواحى الاجتماعية والاقتصادية وكانت هذه الأسس هى العدالة ٠ الشورى ٠ مسئولية الحاكم ٠ الطاعة ٠

ثم ختمت البحث بالحديث عن الاشتراكيات المعاصرة وكيف بدأت تتلاقى مع تعاليم الاسلام القويمة وخاصة اشتراكيات الشرق العربى ومنها بوجه أخص الجمهوريةالعربية المتحدة ٠ ثم ذكرت فى ايجاز عناصر هذه الاشتراكية العربية حتى نتبين منها مدى قربها أو بعدها عن النظام الاقتصادى فى الاسلام ٠

وبعد لعلى أكون قد وفقت بعض الشىء ٠ وهذا هو أملى ورجائى ٠ والحمد لله الذى وفقنى كى أبذل هذا الجهد الضئيل فى سبيل تثبيت أصول الاسلام الاقتصادية فوق غيرها من النظم والمذاهب والفلسفات ٠

أولا :

نتحدث هنا فى مقدمة تتناول مفهوم النظام الاقتصادى وتحديد فترة البحث ·· وتتناول : أوجه الجدل والنقاش التى تدور حول تحديد مفهوم النظام الاقتصادى وفقا لمدارس الفكر المختلفة · كما تتناول علاقة النظام الاقتصادى بمعايير الزمان والمكان . وفى هذا الصدد نجد أن هناك مدرستين من مدارس الفكر الاقتصادى يمثلان فى حقيقة الأمر انعكاسا لمفاهيمهما الفلسفية بصفة عامة وهما :

١ ـ المدرسة الكلاسيكية : وهى تعنى بالنظام الاقتصادى ذلك النوع من النشاط الذى يكفل تحقيق المصلحة الشخصية للفرد فى ظل اطار من الملكية الفردية الخاصة · حيث تعتبر مصلحة الفرد محور لمصلحة المجتمع · ومن وجهة نظر هذه المدرسة يعتبر النظام الاقتصادى نظاما طبيعيا تحكمه قوانين طبيعية ليس للانسان دخل فى تغييرها أو التغيير فى جوهرها أو حتى فى شكلها · فهى بذلك قوانين صارمة قدرية من صنع الله

والنظام الاقتصادى وفقا لهذا النمط من التفكير يعد منفصلا عن معايير الزمان والمكان فهو نظام مطلق لا نسبى · يحكم البشر وبسيرهم مهما تغيرت عجلة التاريخ أو تغير موطن الانسان ، ولاشك أن مثل هذه المدرسة من مدارس الفكر الاقتصادى قد بنت هذه النتائج على أساس أسلوب البحث الذى كان سائدا · وهو ذلك الأسلوب الذى يرسم من منطق صناعى صورة زيتية لعالم حقيقى · أو بعبارة أخرى · أسلوب البحث التجريدى الذى يبدأ بفروض صناعية · يبنى على أساس منها نتائج يفترض فيها الصحة والمنطق · بينما هى فى حقيقة الامر ليست الا نوعا من المناقشة العقلية التى تحيد عن منطق الواقع فى كثير أو قليل · فالانسان الاقتصادى · والمنافسة الحرة الاقتصادية الخالصة التى كانت البداية والتى بنى على أساس منها النتائج السابقة الذكر ·

ليست الا قصورا تبنى فى السماء وليس لهـــا دعائم على الأرض فهى ليست الا خيالات فنان ذو سليقة متسامية • تصور واقعـــا وهو أبعد ما يكون عن الواقع • والحقيقة أن منطق المدرسة ـ نبها وصميمها ـ ليس الا انعكاســا لمدارس الفكر الفلسفى التى أرادت تمجيد الفرد فكانت مأساة على الفرد نفسه • اذ أنها فى الحقيقة مجدت فردا بذاته يملك ويتحكم • وأبعدت عن الصورة • أو حتى عن رتوش الظل فيها انســـانا آخر يشقى ويكـــدح • مستعبد لا ملكية له • ولكننا لو اتبعنا أسلوب العدل العلمى لحق لنا القول أن المدرسة لم يكن أمامها أن تقول غير ماقالت • فهى تعيش فى جو تحقق فيه التقدم والازدهار على يد أفراد قلائل من المغامرين • منتفعى الاكتشافات الجغرافية والثورة الصناعية • الامر الـــذى مالبث أن ظهر أنه لا يخلو من المطاعن • فسهام النقد توجه اليـــه من كل حدب وصوب • فالنظام الاقتصادى طالمـــا أنه نظام باحث فى الانسان ومتعقب له مسير لمصالحه • وطالما أن هذا الانسان ولد خاضعا لمعايير الزمان والمكان لا يمكن بحـــال من الاحوال الا أن يكون نظاما نسبيا • فهو ليس كالبركة الآسنة تسير فى أى اتجاه • وانمـــا هو من صنع المـكان والـــزمان • وتاريخ العالم الاقتصادى ليس الا دليـــلا على ذلك • فان كانت انجلتـــرا قـــد اتبعت فى فترة من تاريخها أسلوب الحرية ومنطقها فى ظل ظروف كانت الحـــرية فيه مغنما بالنسبة لها • فانها وهى ذات الدولة • وان ثبتت دعائم المكان ـ قد اتبعت أسلوب الحماية الجمركية • بل وحادث عن نظام الحرية فى ظل زمان آخر . أوليس ذلك دليلا واضحا على أن مقومات الزمان حاكم للنظام مسير له .

كذلك لو ثبتنا من ناحية أخرى دعائم المكان فاننا نجد أنه ان كانت الحرية صالحة بالنسبة لدولة فانهـــا لا تعد بحـــال من الاحوال صالحة لدولة أخرى • ذلك أن الانسان وهو محور النظام الاقتصادى • يتفاعل مع المكان • وموجات التأثيـــر والتأثر بينه

وبين واقع منشأه • موجات فى حقيقة الامر متصلة ومستمرة • فالانسان ليس الا تعبيرا عن ظروف مكان وظروف المكان ليست الا صفة للانسان •

وقصارى القول اذن أن المدرسة الكلاسيكية فى تحديدها للنظام الاقتصادى قد حادت عن الصواب حينما مجدت الفرد فيه • واعتبرته محورا له • وكذلك حينما تصورته فراغا يعيش بلا ركنين هامين وهما الزمان والمكان • قوانين الانسان الابدية •

المدرسة التاريخية : وهى تلك المدرسة التى ظهرت حينما بدأت نتائج الثورة الصناعية فى شقها الحزين تبدو فى أفق أوروبا • وبعبارة أدق حينما بدأ يبدو فى الافق أن الثورة الصناعية كانت ثورة لصالح طبقة معينة بالذات • وحينما بدأ يبدو فى الافق أنه قد كتب على طبقة معينة بالذات أن تعيش فى ظل نظام يقيدها بأطواق من الحديد • كتب على الكادحين أن يظلوا كادحين حينما ظهر فى مناجم ألمانيا وبين طرقات الآلات وتصاعد الغبار أن هناك فئة قد تلقت هذا الغبار متنفسا لها وأخرجته بيديها يصنع ذهبا لغيرها • فى ظل هذا الجو المشبع بالآلام من ناحية • والمتخم بالذهب من ناحية أخرى • ظهرت المدرسة التاريخية • هذه المدرسة وان كانت تعد مدرسة من ناحية كونها أسلوبا فى البحث يعد جديدا • فانها تعد مدرسة أيضا من حيث الفلسفة العامة والمنطق العام الذى أبرزته من ناحية الاسلوب • وبدأت المدرسة أسلوبها فى التفكير باستخدام معاول الهدم لاسلوب المدرسة الكلاسيكية ، فلقد أبرزت أنه فى مجال البحث الاقتصادى لايجب أن يرسم بحال من الاحوال من منطق صناعى صورة زيتية لعالم حقيقى • بل يجب أن يرسم من منطق حقيقى صورة حقيقية لعالم حقيقى • فالنظرية الاقتصادية والنظام وفقا لذلك يجب أن يجد أصوله وأن يخضع للواقع لا أن يخضع الواقع لمنطق تجريدى عقلى • فالبحث والنظام يجب أن يجد منابعه من الواقع نفسه •

ومتابعة التاريخ بصوره المتعاقبة • القاتم منها والابيض هى بحق صورة الانسان فى بحثه عن سعادته • والتاريخ أكبر معلم • فهو يعطى دروس المـــاضى عظة • والعظة بداية التفـكير• واستمرار التفكير معناه الوصول الى الحقيقة • والحقيقة هى غاية الانسان وان اختلفت معاييرها •

الحق اذن أن المدرسة التاريخية قد هاجمت المنطق التجريدى وسايرت المدارس التجريبية فى مجال العلم الفزيائى فى ضرورة لجوئه الى الواقع لخدمة البحث • ولا يجب أن يفهم من ذلك أن أن المدرســـة التاريخيـــة قد هاجمت المنطـق الاســتنباطى • بل على العكس من ذلك • اذ أنها وجدت أن الاستنباط والاســتقراء لازمين لاستمرار البحث لزوم الساقين للمسير • هـذا من ناحية أسلوب البحث • أما من ناحية الفلسفة العامة • فلقد بدأت أيضا بهجوم فعال على المنطق الكلاسيكى • وأبرزت أن النظام الاقتصادى لايمكن بحال أن يخضع لفرد بذاته • بل على العكس من ذلك غايته المجتمع كله • فتحقيق مصلحة المجتمـــع يضمن تحقيق مصلحة الفرد بينما أن تحقيق مصلحة الفرد على العـــكس من ذلك قـد لا يضمن تحقيق مصلحة المجتمع •

خلصت المدرسة من ذلك الى أن النـــظام الاقتصادى تحكمه معايير الزمان والمكان • فهو نظام نسبى فما ينطبق فى ظـل مكان لا ينطبق فى مكان آخر • وما ينطبق فى ظل زمان لا ينطبق فى ظل زمان آخر • والواقع ان هذا المنطق سليم اثبتته تطورات العالـم الاقتصادية • فلقد أثبتت وقائع التاريخ انه وان كان الأسلوب الحر قد اعتبر علاجا ناجحا فى دولة كانجلترا فى ظـل ظروف كانت الحـرية فيهـا أسلوبا صحيحا • فان هذا الأسلـوب نفســه لم ينجـح فى أن يخـرج بالبـــلاد المتخلفة من تلك الحلقة المفرغة التى تـدور فيهـا • وتتمثل فى ركود مزمن ورجعية اقتصادية •

وفى أرض يستنزف باطنها أو ظاهرها بطرق عنيفة بالية لا تدع مجالا للابتكار والتجديد • بل أصبح الأسلوب الحر اسلوبا عقيما باليا • وأسلوب التدخل أسلوبا جديدا باعثا للامل •

ب ـ ابراز الاسس التى نعتمد عليها فى تحديد فترة البحث :

وهنا نواجه سؤالا جوهريا • وهو : هل نعنى بالنظام الاقتصادى فى الاسلام ذلك النظام كما أبرزه كتاب الله السماوى ودعمته زيادة وايضاحا أقوال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أم أننا نعنى أسلوب التطبيق لاقوال الله تعالى وأحاديث رسوله ؟

اذا كنا نعنى الشطر الاول فلسنا فى حاجة لتحديد فترة البحث • فكتاب الله كتاب منزل لكل زمان ولكل مكان • فأقواله لا تخضع للزمان • لان الزمان من صنعه • وكيف للمصنوع أن يحكم الصانع ؟ واذا كنا بصدد المعنى الثانى فان تحديد فترة البحث لا شك تثير جدلا عنيفا •

هل لنا أن نأخذ فترة التطبيق الاولى حيث كان الرسول يعطى جل همه ـ وقته وطاقته ـ حياته كلها ـ لتدعيم رسالة الله • وهى رسالة معنوية كان العرب فيها فى حاجة الى أقوال منزلة من السماء تهديهم الى وجود الله جلت قدرته • قبل أن تبرز لهم أو تضع أمامهم نظاما مكتمل الاسس والدعائم • فالعربى فى حاجة الى معرفة الله أولا • ثم بعد ذلك فى حاجة الى التعرف على نظامه • لذلك فان هذه الفترة الاولى من تاريخ الاسلام تستطيع أن تعطى لنا معينا لا ينضب من الافكار السامية • لكنها ولها العذر فى ذلك لا تستطيع أن تبرز نظاما جديدا • هو النظام الاقتصادى فى الاسلام • لكن الحق يقال ان الفكر الاسلامى فى تلك الفترة نظرا لكونه محل ولادة « يواجه أوجها من النقاش والجدل والعناد » يستطيع أن يبين لنا فكرة النظام الاقتصادى فى الاسلام •

وطالما أن الفكر بداية للواقع · فإن دراسة تلك الفترة تهدينا كثيرا من الافكار التى تعد مفتاحا لدراسة الواقع الاسلامى بعد ذلك ·

وعليه فان دراسة عجالة سريعة عن تلك الفترة تعد أمرا لازما ولكنها لا تعطى لنا كل مانريد · فهى تعطى لنا الشكل العام للصورة ولكنها لا تعطى الصورة نفسها ·

كيف لنا اذن أن نحيط بالصورة ·· بل وبرتوش الظل فيها ؟

هنا يثار جدل أكثر عمقا · وهو أن الاسلام قد مر بمراحل متعددة · مرحلته الاولى كانت الرسالة ونشرها بين قوم من الكفرة والملحدين · ثم مرحلته الثانية وكانت مرحلة التوسع فى الدعوة والنصرة لأقوام عاشوا فى ظلال الشرك فترة طويلة · وهى مرحلة التوسع الاسلامى · ومرحلته الثالثة كانت مرحلة تدعيم الدولة الاسلامية · وبناء أسسها السياسية والاقتصادية أى وضع منطق المعاملات الاسلامية موضع التنفيذ · ولا شك أن اهمال فترة دون أخرى يعد بعدا عن الحقيقة العلمية · بل يعد تحيزا غير خاضع للقياس · فأى مرحلة ليست الا وليدة ظروف مرحلة سابقة لها · هذا هو منطق الحياة ·· فالحياة مزيج متتال متتلاحق من الخطأ والصواب ·· من الحركة والهدوء ·· من السعادة والشقاء ··

حتى الآن لا زلنا فى مجال البحث الفلسفى ولم نحدد بعد فترة للبحث ولكن تلك الدراسة السابقة أوضحت لنا أن دراسة النظام الاقتصادى الاسلامى تتطلب منا :

١ ـ تتبع منابع الفكر فى كتاب الله وسنة رسوله ·

٢ ـ الفلسفة العامة للنظام : الحرية : التدخل ٠

٣ ـ دراسة سريعة ومقارنة لأوجه النشاط الاقتصادى فيما قبل الدعوة وبعدها ٠

٤ ـ دراسة سريعة لاوجه المعاملات فى الجزيرة والبلاد التى فتحت لتتبع الاسلوب الاسلامى فى المعاملات ٠

٥ ـ مصادر الدخل ٠

٦ ـ أسس التوزيع للدخل المكتسب وفقا لمصادره ٠

٧ ـ دور الدولة المالى من ناحية الضرائب والعدالة الضريبية ٠

٨ ـ العوامل السياسية ومدى تأثيرها فى تطـور النظـام الاقتصادى فى الاسلام ٠

الجزء الأول

الفلسفة العامة للنظام الاقتصادي في الإسلام